المساجد الزيانية بتلمسان
«عمارتها وخصائصها»

عبد العزيز لعرج
أستاذ العمارة والفنون الإسلامية بمعهد الآثار

ساعدت الظروف السياسية المتردية للدولة الموحدية على اثر هزيمة جيوشها في معركة العقاب سنة 609هـ 1212م ، على انتشار الفوضى والاضطرابات في المغرب العربي أدت الى زعزعة وحدته وتفتيت قوته وظهر على السطح ثلاث امارات هي : الامارة الحفصية في افريقيا وعاصمتها تونس ، والامارة الزيانية بالمغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان ، والامارة المرينية في المغرب الأقصى وعاصمتها مراكش ، وما لبثت هذه الامارات أن استقلت عن الدولة الموحدية ثم اسقاطها في النهاية .

ولكنها دخلت بدورها في دوامة من الخصومات والمعارك الانتحارية المستمرة فيا بينها ، أدت الى الانحلال التدريجي المفتت لقوى المنطقة ومواردها الاقتصادية ، وانعكس ذلك كله بصورة سلبية على الوضع الحضاري والنشاط العمراني والفني .

وربما كانت امارة تلمسان الزيانية أكثر هذه الامارات عناءً ، من جراء هذه الصراعات والحروب باعتبارها لم تكن مهاجمة وانما كانت مهاجمة باستمرار فكانت بذلك مدافعة عن كيانها ووجودها خاصة في مواجهة المرينيين الذين احتلوا تلمسان والمغرب الأوسط بأكمله لمرات عديدة فتأثر سلبيا النشاط العمراني للمنطقة . ويفسر ذلك قلّة المباني التي شيدها الزيانيون وبساطتها بالمقارنة مع الفترة الزمنية الطويلة التي حكموا فيها .

وسيتضح ذلك فيا سنعرضه في هذه الدراسة وسنتطرق فيها الى النقاط التالية :

- تلمسان قبل قيام الدولة الزيانية

- قيام الدولة الزيانية
- الحركة العمرانية والفنية في العهد الزياني
- المساجد المؤسسة : المؤسسون والشخصيات المنسوب اليها المساجد
- الوصف الأثري المعماري للمساجد الزيانية القائمة
- الدراسة التحليلية لخصائص المساجد الزيانية القائمة
- الخاتمة .

تلمسان الى قيام الدولة الزيانية

تلمسان مدينة جميلة تقع في سفح جبال مسيطرة على سهل الصفصاف الذي يخترقه نهر يعرف بهذا الاسم ، ويحدها وادي زا ونهر ملوية غربا ووادي الصومام وصحراء نوميديا جنوبا ، وهي مركز لقبائل بني يفرن ، ويذكرها ابن خلدون بأنها أي مدينة تلمسان «قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة»[1] .

ويتركب اسمها من كلمتين «تلم - ساين ، أو تلم وسان أو تلم سن» أي أنها تجمع بين اثنين البر والبحر أو أن الكلمة جاءت بسبب الموقع المتوسط لطرق الاتصال الكبرى الممتدة من الشرق الى غرب المغرب والطريق الذي لا يقل أهمية عن ذلك والموصل بين مرسى هنين والقسم الجنوبي[2] ويصفها البكري بالآثار والعمران والجمال وكثرة العيون والمياه والأشجار المثمرة[3] .

وتلمسان مدينة موغلة في القدم كانت تسمى بوماريا وقيصرية في العهد الروماني آلت الى بني عبد الواد المغراويين ، ثم تنفذ فيها يغمراسن بن زيان وورث الحكم فيها عنه أحفاده وتسموا باسم بني زيان نسبة الى زيان والديغمراسن حيث أستقر الملك فيهم ثلاثة قرون[4] .

غير أن تلمسان خضعت قبل يغمراس للأدارسة فقد دخلت تحت طاعة ادريس الأول (172 - 175هـ/789 - 792م) الذي بنى مسجدا لعاصمته أغادير وصنع له منبرا وقام بتجديد المسجد واصلاح المنبر ابنه ادريس الثاني (186 - 213هـ/802 - 824م) .

وقد آل أمر تلمسان الى الفاطميين على اثر حركة أبو عبد الله الشيعي فولوا عليها موسى ابن أبي العافية (219هـ/834م) .

وقد ظلت تلمسان منذ تغلب الفاطميين على المغرب منطقة صراع وتبادل نفوذ بين أمويي قرطبة والفاطميين في إفريقيا ثم بعد ذلك بين الحماديين وقبيلة زناتة متولية أمر تلمسان حتى قيام المرابطين (472هـ/1079م) فعقد يوسف بن تاشفين عليها لمحمد بن تينعمر المسوفي ثم لتاشفين أخيه[5] .

وقد وجه يوسف بن تاسفين قائده المرابطي مزدلي التلكاتي على رأس جيش كثيف لمحاربة حكام تلمسان من المغراويين (472هـ/1079م) . وفي عام 473هـ/1080م قام يوسف بان تاشفين نفسه بهذه المهمة فاستولى على مناطق كثيرة من المغرب الأوسط من بينها تلمسان حيث قتل

أميرها المغراوي العباس بن بختى وأقام بدله محمد بن تينعمر كما ذكرنا .

أقام يوسف بن تاشفين مدينة جديدة بتلمسان هي مدينة تاكرارت بجوار أغادير القديمة الادريسية[6] كما أقام المرابطون مجموعة أخرى من المباني الدينية والمدنية بالمغرب الأوسط من بينها الجامع الكبير بالجزائر وجامع تلمسان الكبير ثم جامع ندرومة .

وكانت هذه المساجد متأثرة الى حد كبير بالجامع الأموي في قرطبة[7] . وفي عام 540هـ/1145م تغلب الموحدون على تلمسان بقيادة عبد المؤمن بن علي وذلك بمقتل تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين بوهران ، ويبدو أن تلمسان وقفت موقفا حاسما شجاعا ضد جيوش عبد المؤمن الشيء الذي يفسر تخريب عبد المؤمن لعمرانها وقتل أهلها .

غير أن أهمية المنطقة وعظمة المدينة فرضت على عبد المؤمن اعادة النظر فيها والتفكير في أمرها فجمع الناس الى اعادة تعميرها وترميم واصلاح ما فسد من أسوارها ودورها وقام عبد المؤمن بالمؤاخاة بين الموحدين وبين سكان تلمسان .

وقد قدر الموحدون هذه المدينة وسكانها ، فألحقوا بها أمر المغرب الأوسط وقبائله وذلك اهتماما بأمرها وتعظيمها لعملها كما يذكر ابن خلدون الذي يشير في موضع آخر الى عناية ولاة الموحدين واهتمامهم بتحصينها وتشييد أسوارها وحشد الناس الى عمرانها واتخاذ الصروح والقصور بها واتساع خطة الدور فيها وادير حولها سياج الأسوار وسدت شقوقها وحفرت الخنادق حولها حتى صارت بهذه الأعمال الجليلة أمنع معاقل المغرب وأحصن أمصاره[8] .

وربما كانت هذه التحصينات وتلك الخنادق والأسوار من العوامل التي ساعدت سكان المدينة على الوقوف في وجه جيوش ابن غانية ومن أنجاز إليه من هلالي افريقيا ، والواقع أن مدافعة تلمسان لفتنة ابن غانية ومنعه من دخولها بالرغم مما عاثه من فساد وما قام به من تخريب ودمار لأمصار المغرب الأوسط يرجع الى اجماع قائل هذه الأمصار من زناتة وغيرها واجتماعها الى الولاة الموحدين بتلمسان ومآزرتها لهم .

قيام الدولة الزيانية
633 - 964 هـ / 1235 - 1556م

تأسست الدولة الزيانية في القرن 7 هـ/13م على يد السلطان يغمراسن بن زيان (634 - 682هـ/1233 - 1283م) الذي بويع في تلمسان سنة 634هـ/1233م وكان يغمراسن زعيما لقبيلة بدوية وواليا من قبل الموحدين وخاضعا للخليفة الموحدي خضوعا شكليا حتى تمكن من الاستقلال بالمغرب الأوسط الذي يحكمه عن الدولة الموحدية ، غير أن وقوع دولته بين المملكة المرينية في الغرب والحفصية في الشرق (625 - 976هـ/1228 - 1243م) جعله يتعرض مرارا لغزواتها وحصارهما[9] .

واذا كانت الدولتان الحفصية والزيانية قد انفصلت كل منهما عن الدولة الموحدية دون بذل جهد كبير فان الدولة المرينية 668 – 934هـ/1269 – 1525م) دفعت في سبيل ذلك ثمنا باهضا ، ولم تتمكن من دخول العاصمة الموحدية مراكش الا بعد معارك طاحنة استغرقت ما يزيد عن نصف قرن[10] .

ان المحاولات العديدة للملكتين المرينية والحفصية القضاء على المملكة الزيانية بغض النظر عن العداء القديم بين الزيانيين والمرينيين مثلما يذكر المؤرخون ، ربما ترجع الى طريقة انفصال الدولة الزيانية عن الأمبراطورية الموحدية واستقلالها عنها ، فمداهنة يغمراسين للخليفة الموحدي الرشيد بن عبد الواحد بن ادريس المأمون والابقاء على دعوته والدعاء له ومده بالمساعدة في صراعه ضد رغبة المرينيين والحفصيين في الانفصال والاستقلال عنه ربّما كان ذلك عاملا من عوامل العداء وسببا من أسباب محاولة القضاء عليها[11] هذا بالإضافة الى عوامل أخرى كادعاء حق الوراثة الشرعية للموحدين والموقع الجغرافي لكل من الزيانيين والمرينيين ، فموقع الأولى سمح لها باحتكار الطرق التجارية الرئيسية الرابطة بين افريقيا والمغرب الأقصى والبحر المتوسط بالصحراء ، أما موقع الثانية التي يحدها من الغرب المحيط الأطلسي ومن الجنوب الصحراء فانه لم يكن لها في توسعها غير الناحية الشرقية[12] .

وقد أدت هذه الأسباب والعوامل مجتمعة الى احتدام الصراع بين الزيانيين والمرينيين بصفة خاصة ، قام على اثرها هؤلاء الأخيرين بغزو تلمسان وضرب الحصار عليها أكثر من تسع مرات تمكنوا خلالها من الاستيلاء على العاصمة الزيانية مرات عديدة كما حدث في عهد أبي الحسن عام 735هـ/1334م . وعهد أبي عنان عام 753هـ/1352م[13] .

كان هذا الموقع للدولة الزيانية وذلك الصراع المرير من أجل استمرارها سببا في انهاك قواها وانشغالها بالكر والفر ، وقد انعكس ذلك كله على نشاطها المعماري والفني ، فلم تشيد ما كان يتناسب مع حيوية سلاطينها وما عرف عنهم من تشجيع للعلم والعلماء .

وبالرغم من ذلك فان هذا النشاط وتلك الحركة خلقت العديد من المباني الدينية والمدنية والعسكرية ، فقد خلفوا استحكامات عسكرية في تامزاردكت بالقرب من القصور في عهد أبي تاشفين الأول حيث بناها خلال حصاره لبجاية . أما العمائر المدنية فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قصور أبوتاشفين الأول (718 – 733هـ/1318 – 1337م) كدار السرور ودار أبي فهر ودار الملوك .

ان أكثر الميادين التي أبدع فيها الزيانيون كان ميدان العمارة الدينية ، فقد خلفوا لنا مبان رفيعة على درجة كبيرة من الرقة والفخامة كمسجد سيدي بلحسن الذي يعتبر من أفخم المساجد في شمال افريقيا بما حواه من ثوب زخرفي وفني ، بالاضافة الى مسجدي أولاد الامام وسيدي إبراهيم .

وقد ترك الزيانيون بالاضافة الى ذلك مآذن أقاموها لمساجد سابقة مثل مئذنة جامع أغادير وجامع الجزائر ومئذنتي الجامع الكبير بتلمسان وندرومة . كما شيدوا أضرحة للعلماء والفقهاء تخليدا لذكراهم كضريح سيدي إبراهيم وضريح سيدي مرزوق[14] .

كما قدر السلاطين العلماء والمدرسين وشجعوهم على ذلك ببناء المدارس مثل المدرسة التاشفينية والمدرسة القديمة والمدرسة اليعقوبية وغيرها ..

وسوف نركز في هذه العجالة على خصائص المساجد الزيانية وسوف نلقي نظرة وجيزة على أعمال الزيانيين المعمارية والمؤسسين لها والشخصيات التي أنشئت لها أو تسمّت باسمها .

الحركة المعمارية والفنية في العصر الزياني

لقد كان لقيام الدولة الزيانية أو العبدوادية أثر كبير في التطور الشامل للمغرب الأوسط فقد وحدت مناطقه ومدنه وبعثت فيه حركة فكرية ونهضة علمية ونشاط معماري وفني كبيرين .

وقد جعل الزيانيون مدينة تلمسان مركز اشعاع حضاري متنوع بما ورثته من تراكم حضاري إسلامي بدأ مع أول مسجد بنى بها في أغادير الادريسية وما تلاها من مباني دينية ومدنية في تاكرارت المرابطية الجديدة ثم تلمسان الزيانية بأكملها .

والواقع أن الفن المعماري والزخرفي في تلمسان الزيانية يخضع خضوعا يكاد يكون مباشرا للتقاليد الفنية الموحدية وهي فكرة سادت في أقطار المغرب الثلاثة التي ورثت الأمبراطورية الموحدية سياسيا وحضاريا مثلما يتضح في المساجد الزيانية كمسجد سيدي بلحسن وأولاد الامام[15] .

على أن هذه المظاهر المعمارية والفنية المغربية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمظاهر الفنية الأندلسية التي أخذت تتغلغل بصورة مباشرة في أقطار المغرب منذ العهد المرابطي مثلما يتضح في تخطيط وزخارف مساجد الجزائر (الجامع الكبير بالجزائر ، جامع تلمسان الكبير ، جامع ندرومة) وخاصة منذ عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي نشأ وترعرع في الأندلس وكان اندلسيا أكثر منه مغربيا فتشرب مظاهر الحياة والفن الأندلسي وصاحب معه الى المغرب خيرة المعماريين والفنانين .

وقد ازدادت التأثيرات الفنية الأندلسية قوة وكثافة منذ انضواء الأندلس تحت الحكم الموحدي باتحادها مع المغرب بحيث يبدو من الصعب وجود تركيب زخرفي أو شكل فني أو تخطيط وعنصر معماري دون أن يكون للتقاليد الفنية والمعمارية الأندلسية أثر فيها .

ان هذا التأثير الأندلسي على المغرب يبدو أمرا طبيعيا أمام التطور الحضاري الذي بلغته الأندلس بالاضافة الى سهولة الانتقال ويسره ، بين العدوتين والذي زاد في تدعيمه وتقوية

روابطه الوحدة السياسية التي شهدها المغرب والأندلس في القرنين (6 – 7هـ/12 – 13م) وهذه الوحدة مكنت الفنانين والمعماريين والحرفيين من التنقل بين مدن العدوتين حيث تم استخدامهم من قبل الأمراء والحكام في التشييد والبناء وتجميل المدن ، وهو استخدام لم يتوقف بسقوط الدولة الموحدية بل استمر خلال عصر الممالك الثلاثة ، فالمعروف على سبيل المثال أن أبا حموا وأبا تاشفين طلبا من السلطان النصري في غرناطة اسماعيل الأول تزويدهما بالمعماريين لبناء قصورهما[16] .

هذا ومن جهة أخرى فان المكانة التي بلغها الفن الموحدي والازدهار الذي لحقه وقوة الدفع الداخلي فيه كعنصر للبقاء ، كل ذلك ضمن له الاستمرارية في العصور التالية بشكل قوي وبوتيرة متناسبة مع قوته ، ولذلك فلا غرابة أن نجد هذا الفن قد ظل مصدر وحي والهام للفنانين في أقطار المغرب لمدة تزيد عن الثلاثة قرون بل وأكثر من ذلك استمراره خلال العهد العثماني بشكل أو آخر .

نبذة وجيزة عن مؤسسي المساجد الزيانية

أبو سعيد عثمان بن يغمراسن : 681 – 703هـ/1282 – 1303م . وهو مؤسس جامع سيدي بلحسن ولاه والده ولاية العهد حين خرج عام 681هـ/1282م الى محاربة بلاد مغراوة وأثناء ذلك أحس بالمرض فأعيد الى تلمسان حيث توفي في الطريق ، فبايع الناس أبا سعيد عثمان البيعة العامة والخاصة .

وقد بادر الى مهادنة المرينيين والحفصيين فأرسل لهم الوفود لاقامة الهدنة وعقد المعاهدات تنفيذا لوصية والده ، فتفرغ بذلك الى رد بلاد توجين ومغراوة وبجاية الى ملكه[17] .

غير أن المرينيين عاودوا مهاجمة الزيانيين ابتداء من سنة 696هـ/1296م وحوصرت تلمسان عام 698 هـ/1298م على يد أبو يعقوب يوسف المريني الذي شرع في بناء مدينة المنصورة تأكيدا لعزمه على فتح تلمسان وقد ذاقت المدينة المحاصرة الموت والجوع ومع ذلك فلم تستسلم أو تخنع لعدوها ، غير أن أبا سعيد عثمان توفي فجأة عام 703هـ/1303م والحصار على أشده فخلفه ابنه أبو زيان محمد[18] .

وكان أبو سعيد عثمان ومن قبله والده محبا للعلم ومشجعا للعلماء ومجلا للفقهاء والمتصوفة وقد استقبل العالم الفقيه أبو الحسن التنسي وألحقه بالتدريس بتلمسان وحين بنى أبو سعيد عثمان جامعا تخليدا للأمير الزياني المتوفي أبو أمير ابراهيم حمل هذا المسجد اسم هذا العالم الجليل فسمى بمسجد سيدي بلحسن .

أبو حموا الأول بن عثمان : 707 – 718هـ/1307 – 1318م

تولى الحكم بعد وفاة أخيه أبو زيان محمد في أواخر سنة 707هـ/1307م وكان كما يصفه ابن

خلدون صارما يقظا داهية قوي الشكيمة صعب العريكة شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة ... رتب مراسيم الملك وهذب قواعده وقلب لأهل ملكه مجن بأسه حتى ذلوا لعز الملك وتأدبوا بأداب السلطان[19] .

ابتدأ أبو حمو موسى الملك بعقد الصلح مع السلطان المريني أبي ثابت ليؤمن حدوده الغربية ويتفرغ بذلك لقبائل مغراوة وبنو توجين وقبائل صنهاجة بالجزائر وقبائل بجاية التي كانت تغتنم فرصة الحرب والحصار لتبعد بنفسها عن الملك الزياني فقام السلطان أبو حموا باخضاعهم وتعيين الولاة عليهم من قبله[20] .

وكان أبو حمو شديدا على مواليه وموالي ابنه أبا تاشفين القائمين على خدمته وتنشئته وكان قاسيا على ولده نفسه من أجل اكتسابه للخلال الحميدة ، والتنشئة الرجولية ذات الشدة والبأس وكان من نتيجة ذلك أن خشيه مواليه وولده في سرهم وعلانيتهم فأغرى الموالي أبا تاشفين بوالده ، وكان هذا الأخير ينكر على والده اصطفاء ابن عمه مسعود بن أبي عامر دونه فأوغر صدره وخشي عن الملك من ابن عمه فوافق على خطة مواليه بعزل السلطان غير أن هؤلاء وثبوا عليه وقتلوه في قصره وسط خواصه ووزرائه على غير ما اتفقوا عليه مع أبي تاشفين[21] ، وكان ذلك عام 718هـ/1318م حيث انتصب بعد ذلك على عرش تلمسان .

ويعتبر أبا حمو موسى الأول المؤسس الحقيقي والباعث الأول للدولة الزيانية مثلما يشهد عليه معاصره يحي بن خلدون ، كما كان أبو حمو محبا للعلم والعلماء ومجلا للفقهاء وقد قرب إليه أبناء الامام وأغدق عليهما وابتنى لهما مدرسة للقيام على التدريس فيها[22] بنى مسجدا ملحقا بهذه المدرسة خصص لصلاة الطلاب والأساتذة ، وما يزال المسجد يحمل اسم هاذين العالمين .

أبو حمو موسى الثاني : 760 - 791هـ/1359 - 1389م .

ويتصل نسبه بمؤسس الدولة الزيانية يغمراسن وهو ابن أخ الأمير بن أبي سعيد الثاني وأبي ثابت .

وكانت حركة السلطان المريني أبي عنان ضد المغرب الأوسط والأدنى عاملا مساعدا وأساسيا في قيام أبي حمو موسى الثاني على حكم الدولة الزيانية ، والمعروف أن أبا عنان استولى على تلمسان وأعمالها بعد معركة انجاد (انكاد) بالقرب من وجدة وفر بنو عبد الواد اثر الهزيمة منهم الأمير أبو ثابت وابن أخيه أبي حمو موسى الثاني ، أما أبو سعيد الثاني فقد قتل بأمر أبي عنان[23] .

وقد التحق أبو ثابت بنواحي بجاية مع أتباعه وقبض عليهم في حين التحق أبو حمو موسى بافريقيا بعد ذلك عام 753هـ/1352م على ما تذكر الروايات ، ونزل على حاجبها أبي محمد بن تافراكين[24] وفي مقامه بتونس بدأت اهتماماته السياسية تتضح حيث تظافرت جهود الحفصيين

تحت قيادة السلطان أبي اسحاق والزيانيين تحت قيادة أبي حمو موسى الثاني في شن الغارات على فلول المرينيين في تونس وقسنطينة والجنوب الشرقي ، وذلك بمساعدة قبائل الدواودة حلفاؤه ، وأخذ يجيب مناطق الجنوب لايهام المرينيين والتمويه عن وجهته الحقيقية ، وقد تغير خط سير أبي حمو وأتباعه نحو الغرب مرورا بمنطقة الزاب ووادي زرقون ثم هاجموا قبائل السويد بوادي تلال وغلبوهم فنال أتباع أبو حمو موسى بني عامر غرضهم في الانتقام من قبائل السويد التي كانت بينهم عداوة وكان ذلك في أواخر عام 759هـ/1357م[25] .

كان أبو حمو وأتباعه بني عامر وأولاد عثمان بن سباع يهدف باتجاهه نحو الجنوب الغربي الالتفاف حول الجيوش المرينية والهائها عن مهاجمة افريقيا ، وفي هذه الأثناء ورد الخبر بوفاة السلطان أبي عنان وهم بوادي تلال ، فاتجه نحو تلمسان مغتنما فرصة اشتغال المرينيين بمصابهم وذلك عن طريق وادي يسر ووادي الصفصاف بالقرب من تلمسان حيث قصدت له كوكبة من الجند المريني فشلت في ردهم وولت محتمية بأسوار المدينة ، وذلك في صفر من عام 760هـ/1358م[26] .

ورسم أبو حمو خطة للاستيلاء على تلمسان فقسم الجيش الى قسمين :

- الأول يعمل على مناوشة الحامية المرينية غربا .
- الثاني يقوم بالاستيلاء على أغادير ومهاجمة تلمسان واقتحامها من الشرق وقد حدث ما كان متوقعا فاستسلمت الحامية ودخل أبو حمو تلمسان في ربيع الأول عام 760هـ/ 1358م[27] .

وقد بذل أبو حمو بعد ذلك جهودا جبارة في بسط نفوذه على المغرب الأوسط وطرد بقية المرينيين كما شرع في الوقت نفسه في تنظيم شؤون دولته وبينما كان في ذلك هاجم المرينيون من جديد تلمسان فأخلاها أبو حمو ملتحقا بحلفائه بني عامر في جمادى الأولى عام 760هـ/1358م .

قام أبو حمو بقطع الطريق على بني مرين بين فاس وتلمسان وألحق الهزيمة بالجيش الذي حاول فتح الطريق نتج عنه آثار سلبية سياسية وعسكرية اضطر معها المرينيون مهادنة أبي حمو وعقد الصلح معه بخروجهم من تلمسان فدخلها في جمادى الثانية من نفس السنة[28] .

وقد ظل بعد ذلك أبو حمو في العمل على رد هجمات المرينيين ومصارعته ايام ورد دسائس الأمراء الزيانيين التي كثرت بما فيها ولده أبو تاشفين ، كما قضى أوقاتا طويلة أخرى في العمل على بسط نفوذه ، على مناطق ومدن المغرب الأوسط ، وكانت نهايته على يد ولده بمساعدة بني مرين وكان ذلك عام 791هـ/1389م[29] .

الشخصيات التاريخية المنسوب إليها المبنى !

أبو الحسن التنسي : وهو عالم وفقيه ولد في مدينة تنس في تاريخ مجهول وتوفى عام 706هـ/1306م وهو من عائلة كريمة مثقفة متفقهة في الدين فأخوه الأكبر أبي اسحاق التنسي

عالم وفقيه بدوره ، وقد قام أبو الحسن التنسي بالتدريس في مدارس تلمسان بعد وفاة أخيه ، ومن تلاميذه العالم الجليل أبو عبد الله الآبلي .

نال أبو الحسن التنسي حضوة كبيرة عند يغمراسن بن زيان وولده أبي سعيد الأول .

التحق أبو الحسن التنسي بالسلطان المريني أبي يعقوب حين جاء غازيا تلمسان ومحاصرا لها وقد استقبل بحفاوة واكرام واجلال تليق بعالم كبير كأبي الحسن حيث مكث في بلاطه حتى وفاته قبيل رفع الحصار على تلمسان وذلك عام 706 كما ذكرنا ، وشاهد السلطان أبو الحسن جنازته بضريح العالم الصالح أبي مدين شعيب ولم يكن يفعل ذلك من قبل[30] .

لقد اشتغل أبي الحسن التنسي بالفتوى في بلاط السلطان المريني واعتمد عليه في أمور سياسية عديدة ، وقد بعثه رسولا الى السلطان الحفصي يطلب منه مساعدته وامداده بأسطول بحري[31] .

ونظرا لهذه المكانة الرفيعة التي حظي بها أبو الحسن التنسي عند السلاطين الزيانيين ولكونه عالما جليلا حمل المسجد الذي بناه أبو سعيد عثمان للأمير الزياني المتوفي أبو أمير ابراهيم اسم هذا العالم[32] .

أولا الإمام :

حمل المسجد الذي أسسه أبو حمو موسى الأول عام 710هـ/1310م بعد 14 سنة من تأسيس مسجد سيدي بلحسن ويحمل اسم عالمين فقيهين اشتغلا بالتدريس في تلمسان وهما :

الأخوان **أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى** أبناء الامام والفقيه التنسي أبو عبد الله محمد الامام الذي شغل وظيفة الارشاد والامامة ، وقد ولد الأخوان في برشك قرب شرشال بالقرب من مدينة تنس وقدما الى تلمسان مستقرين بها في عهد أبي حمو موسى الأول الذي بادر باستدعائهما والحاقهما بخدمته واسناد لهما وظائف هامة في الدولة ، ثم بنى لهما مدرسة وأوقف لهما أراض كثيرة ليؤمنهما شظف العيش ومشقة الحياة[33] .

وأبو زيد عبد الرحمن هو أكبر الأخوين اللذين رحلا الى المشرق عن طريق تونس حوالي عام 700هـ/1300م طلبا للعلم ، فتلقياه في تونس على يد تلامذة ابن زيتون وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي ، وكانت سمعتهما طيبة حيث نزلا ، سواء في الشام أو الحجاز أو مصر ، ثم قفلا عائدين الى المغرب الأوسط منتحلين مهنة التدريس بالجزائر ومليانة وتلمسان[34] .

وقد بنى لهما أبو حمو المدرسة المعروفة باسمهما والتي تعرف أيضا بالمدرسة القديمة وألحق بها مسجدا صغيرا لصلاة الطلاب[35] .

وقد قام الأخوان على التدريس في هذه المدرسة الى أن دخل أبو الحسن المريني تلمسان مستوليا عليها عام 737هـ/1336م حيث دخل المسجد الجامع في حاشيته وخواصه مستدعيا شيوخ الافتاء في البلد ، فحضر اليه الأخوان أبو زيد وأبو موسى أبناء الامام فوعظوه ونهوه

وذكروه بما لحق الناس من النهب والسلب فاتعظ وانتهى وخرج بنفسه مخليا المدينة من جنده وموقفا أيديهم عن الرعية ثم عاد الى معكسره بالمنصورة[36] .

وقد صاحب أبناء الامام السلطان المريني أبو الحسن وحضرا معه معركة الطريف بالأندلس ثم عادا معه الى تلمسان حيث توفي فيها أبو زيد بعد ذلك بقليل عام 743هـ/1342م .

لقد كانت منزلة **أبو زيد** كبيرة عند بني زيان وبني مرين ، فنال رئاسة العلماء في مجلسهم ، وأخذ عنه كثير من مشاهير العلماء مثل الآبلي والمقرى الكبير وأبو عبد الله الشريف وسعيد العقباني وابن مرزوق ومن تآليفه شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع[37] .

أما الأخ الثاني **أبو موسى عيسى** المتوفي عام 747هـ/1348م فكانت له الصدارة بين العلماء في مجالس السلاطين وصاحب السلطان أبي الحسن الى تونس ثم استأذنه في العودة الى تلمسان ، فتوفي بعد قليل من عودته وكان أبو موسى عيسى شغوفا بدراسة العلوم الطبية والكونية ودرس عليه الآبلي[38] .

سيدي إبراهيم :

وهو الشيخ إبراهيم بن موسى المصمودي التلمساني ، أصله من صنهاجة المغرب الأقصى ، ولد بالمغرب في مكناسة وتلقى العلم عن العبدوسي والآبلي في فاس ، ثم قدم تلمسان وحضر دروس أبا عبد الله الشريف في المدرسة اليعقوبية وبعد وفاة أستاذه انتقل الى حلقات سعيد العقباني بالمدرسة التاشفينية ، وأخيرا انقطع للعبادة والتدريس .

وقد تتلمذ عنه فطاحل العلماء كأبي عبد الله بن جميل وابن مرزوق الحفيد ، وتوفي فيما بين 804 – 805هـ/1401 – 1402م ودفن بضريح الأمراء الزيانيين بجانب المدرسة اليعقوبية وتسمى المسجد المحاذي للضريح والملحق به باسمه[39] .

الدراسة الوصفية للمساجد الزيانية

تعتبر الدراسة الوصفية للآثار على درجة كبيرة من الأهمية باعتبارها تسجيل كتابي لها ، تساعد مع الصورة على بقاء الأثر حيا خالدا ، خصوصا اذا علمنا ما لأهمية هذه الآثار باعتبارها تاريخ الأمة وهوية المجتمع والوثيقة المادية التي لا يتطرق الشك إليها ، والتي ساهمت بها الأمة في الحضارة الإسلامية بصفة خاصة والحضارة الإنسانية بصفة عامة ، وكثيرا ما يعتري هذه الآثار التغيير والتبديل الناتجين عن تقادم الزمن ، وبفعل الإنسان بالاضافة الى غزو المدن واتساعها على حساب المناطق الأثرية ومبانيها التاريخية .

وبناء على ذلك فسنقوم بالتسجيل الأثري للمساجد الزيانية من خلال الدراسة الوصفية لها .

أولا – الوصف الخارجي : شكل (1) و (2) .

تتخذ المساجد الزيانية الثلاثة (سيدي بلحسن ، أولاد الامام ، سيدي إبراهيم) شكلا هندسيا مستطيلا يتجه من الشمال الى الجنوب في المسجد الأول والثالث ، ومن الشرق الى الغرب في المسجد الثاني ، وتحتل المئذنة ، فيها أحد أركان المستطيل : الركن الجنوبي الشرقي في المسجد الأول (سيدي بلحسن) والركن الشمالي الغربي في المسجد الثالث (سيدي إبراهيم) والركن الشمالي الشرقي في المسجد الثاني (أولاد الامام) .

أما المداخل فيختلف شكلها وموضعها وعددها من مسجد الى آخر (شكل 3) . فالمدخل الرئيسي لمسجد سيدي بلحسن يحتل منتصف الحائط الشرقي ، وهو مدخل تذكاري بارز بينما يفتح الثاني في الجانب الجنوبي الغربي ولكنه مدخل عادي وبسيط يشبه في شكله المداخل الثلاثة لمسجد أولاد الامام المفتوح أحدها في الحائط الشرقي والثاني والثالث في الحائط الشمالي المشرف على الصحن المشترك مع المدرسة قديما .

أما مسجد سيدي ابراهيم فيتضمن ثلاثة مداخل تذكارية بارزة تحتل الأضلاع الثلاثة للمسجد عدا الجنوب الشرقي منها وقد نظمت بطريقة متناسقة متوازنة .

وتبدو سقوف المساجد الثلاثة من الخارج على هيئة منحدرة أو على هيئة شكل جذع هرم ، وهذا الشكل من التسقيف يتماشى مع مناخ المنطقة ، إذ يساعد على تسرب مياه الأمطار وانحدارها شتاء ، كما يساعد على تلطيف الجو داخل المسجد صيفا ، ويبدو السقف من الخارج مغطى بقراميد فخارية صلبة مطلية باللون الأخضر اللامع وتسير هذه السقوف بشكل عمودي على جدار القبلة في مسجدي سيدي بلحسن وأولاد الإمام وبشكل موازٍ له في مسجد سيدي ابراهيم (الذي تبدو قبته التي أمام المحراب بارزة بروزا خفيفا الى الخارج تخترقها شبابيك صغيرة للاضاءة والتهوية بعضها نافذ والبعض الآخر أصم) كما فتحت شبابيك أخرى للاضاءة والتهوية في حوائط المساجد الثلاثة .

ثانيا – الوصف الداخلي :

تتميز المساجد الزيانية الثلاثة باحتفاظها بجوهرها المعماري اذا ما استثنينا مسجد المشور الذي تلقى تغييرا كاملا في شكله المعماري لم يبق معه من أصالته غير مئذنته ، الشيء الذي يضطرنا الى اهماله هنا .

والواقع أن المساجد الزيانية صغيرة الحجم اذا ما قورنت بالمساجد المرابطية السابقة أو المرينية المعاصرة في تلمسان ، مما يثبت وظيفتها الثانوية التي ندركها من خلال المقاسات العامة لها والتي لا تتجاوز في المسجد الأول (10،20 م طولا و9،70 م عرضا وفي المسجد الثاني تقدر بـ 9 م طولا و 6،30 م عرضا ويعتبر المسجد الثالث أكثرها اتساعا وأكبرها حجما بحيث تقدر مقاسات بيت الصلاة فيه بـ 19 م طولا 15،40م عرضا (شكل 1 ، 2) .

تتصل مداخل المسجدين الأول والثاني ببيت الصلاة مباشرة بينما يوصل اثنان منها في المسجد الثالث الى مؤخرة بيت الصلاة والثالث الى صحن مركزي مكشوف ، ويوجد في كل مسجد من المساجد الثلاثة باب آخر صغير يوصل الى المئذنة .

1 - صحن جامع سيدي إبراهيم :

وهو جزء أساسي في المسجد زاده اتزانا وتناسقا ، وتقدر مقاساته بـ 11،20 م طولا 10 م عرضا يحيطه رواق يشرف عليه بثلاثة عقود حذوية مرتكزة على دعامات من جهاته الشرقية والغربية والشمالية ، ويتوسط الصحن ميضأة مستديرة من الجهات الأربعة الأصلية تتوسطها فوارة رخامية ومسجد سيدي إبراهيم هو المسجد الزياني الوحيد المتضمن للصحن وقد بني في الفترة التي كان المرينيون قد سيطروا فيها على تلمسان في عهد أبي الحسن وأبي عنان وبنوا بها مجموعة من المساجد تأثر بها جامع سيدي إبراهيم في تخطيطه الذي يشبه جامعي سيدي بومدين وسيدي الحلوي اللذين بنيا على يد أبي الحسن وأبي عنان على التوالي .

2 - بيوت الصلاة :

وهي ذات شكل مستطيل ممتد من الشمال الى الجنوب في المسجد الأول والثالث ومن الشرق الى الغرب في المسجد الثاني ومقاساتها تتراوح بين 10،20 م × 9،70 م في سيدي بلحسن و 9 × 30 ،6 م في أولاد الامام ، و 19 م × 15،40 في سيدي إبراهيم .

يتألف بيت الصلاة في كل من المسجد الأول والثاني من ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة ومن خمس بلاطات مماثلة في المسجد الثالث ، وتقطعها أساكيب ثلاثة في المسجد الأول واثنان في الثاني وأربعة في الثالث ، ويفصل كل بلاطة عن الأخرى بائكة من ثلاثة عقود حذوية ترتكز على أعمدة رخامية مجزعة في سدي بلحسن وعقدين في أولاد الامام ويرتكزان على دعامات بينما تحمل البوائك الأربعة في سيدي ابراهيم عقود حذوية تحملها دعامات (شكل 4) ، تتميز البلاطة الوسطى العمودية على المحراب في سيدي بلحسن وسيدي ابراهيم باتساع أكثر (4 م) عن البلاطات الأخرى تليها البلاطتين المتطرفتين اللتان تعتبران في أولاد الامام أكثر اتساع من بلاطة المحراب العمودية .

تمتاز العقود الحذوية المتجاوزة في المساجد الثلاثة بالبساطة الشديدة اذا ما قورنت بالعقود المفصصة أو العقود ذات الخطوط التحديدية المنكسرة أو المسننة التي انتشرت في العصر المرابطي وبلغت قمتها في العصر الموحدي فقد أبعدت هذه الأنواع من العقود في المساجد الزيانية وانتقلت الى خارج المساجد حيث رصعت بها الأوجه الأربعة للمآذن .

وتتميز الأعمدة في المساجد بقلتها فهي لا توجد الا في سيدي بلحسن ، وقد صنعت من

الرخام المجزع وهو رخام محلي موجود بالقرب من تلمسان ، استغله المرينيون في عمائرهم بالمنصورة وغيرها ، ويتضمن المسجد عشر أعمدة اثنان منها يكتنفان المحراب وأربعة مندمجة في الحوائط وهي ذات قاعدة وبدن وتاج ، أخذت بعض تيجانها شكل قاعدتها بينما زخرفت تيجان أخرى بعناصر نباتية محورة قوامها أوراق الأكانتس والمراوح النخيلية وانصافها ،. أو أوراق نباتية بسيطة ومركبة وعناصر على هيئة المحارة ، أو كوز الصنوبر ، بالاضافة الى أشكال هندسية ونقاط وخطوط مختلفة الشكل والحجم ، وتمتاز هذه الزخارف بالتناسق والتوازن والتناغم يريح المتأمل ويستثير خياله ويبعث في الروح شذى وفي العين متعة .

أما دعامات مسجد أولاد الامام وسيدي إبراهيم فهي على ثلاثة أشكال :

- الأول مستطيل (□)
- الثاني يشبه حرف اللام الأوسط العربي (لـ) ويتخذ أوضاع مختلفة .
- الثالث على هيئة العلامة الحسابية زائد (+) (شكل 4) .

3 - **المحاريب** : (شكل 5)

تحتل المحاريب في المساجد الثلاثة ، الحائط الجنوبي الشرقي وتتصدره في منتصفه ، وقد اتبع الزيانيون التقاليد السابقة للمحاريب المرابطية والموحدية من حيث تشكيل المحراب على هيئة مضلعة سداسية وعقودها حذوية متجاوزة على درجة كبيرة من الانتفاخ في سيدي إبراهيم ، ويقدر اتساعها بـ 1،30 م وعمقها 1،70 م في المسجد الأول بينما في المسجد الثاني فتقدر سعته بـ 1،18 م وعمقه بـ 1،64 م وفي المسجد الثالث 1،46 م و 1،92 م .

وتعلو حنية المحاريب الثلاثة من الداخل قبيبات صغيرة مقرنصة في المسجدين الأول والثاني وذات ثماني قنوات في المسجد الثالث ، وتتوسط هذه القبيبات قبيبات أصغر ، أو دوائر مفصصة ، ويحصر المنطقة المقرنصة شريط كتابي من آيات قرآنية بخط نسخي وكوفي رقيق ثماني الأضلاع في سيدي بلحسن وسداسي الأضلاع في أولاد الامام وأسفل هذه المنطقة شريط من عقود مستديرة صماء تقوم على أعمدة جصية رشيقة مشغولة في الحائط تعلوها تيجان صغيرة مزينة بمراوح نخيلية وأنصافها وكوز الصنوبر في الزوايا العليا . ويخلوا الجزء السفلي من القبيبات من أي زخرفة .

تتميز محاريب المساجد الزيانية بصفة عامة بالبساطة وانعدام أي قيمة أثرية بها باستثناء محراب مسجد سيدي بلحسن الذي يعتبر من أفخم محاريب المساجد الجزائرية بزخارفه ، الرقيقة وعناصره الفخمة . ويقدر قطر عقده بـ 1،11 م وفتحته 0،94 م وهو نفس فتحة عقد محراب أولاد الامام وقطره 1،21 م وهو نفس القطر في عقد محراب سيدي إبراهيم والذي تقدر فتحة عقده بـ 1،04 م .

يتخذ اطار محراب مسجد سدي بلحسن شكلا يكاد يكون مربعا لينحصر فيه عقده الذي يحيطه شريطان زخرفيان : الأعلى مفصص والأسفل أملس تتوسطهما مساحة متسعة تشغلها صنجات يقدر عددها بـ 23 صنجة قاعدتها موازية لمفتاح العقد وجزءها الأعلى على هيئة عقد حذوي صغير ، بعضها زخرف بسيقان نباتية ومراوح نخيلية صغيرة ويحيط اطار المحراب شريط زخرفي من الكتابة من بالخط النسخي يلتقي عند منبت العقد بشريطين آخرين على يمين ويسار المحراب ، يتألف كل منهما من بحر ذي زخارف كتابية بالخط الكوفي على أرضية نباتية من المراوح النخلية ، ويحيط البحر ، شريط مستطيل من زخارف كتابية بالخط النسخي على أرضية نباتية ، وتتألف الأركان المحصورة بين العقد المصنج والشريط الكتابي الذي يعلوه ، من عناصر ذات زخارف قوامها مراوح نخيلية وانصافها بسيطة ومركبة ، وعناصر نباتية محورة من سيقان ووريقات وزهيرات صغيرة .

ويحيط الشريط الكتابي الذي يعلو العقد شريطين آخرين عبارة عن بحر متسع من الجانبين والأعلى ، ويتضمن زخرفة كتابية من الخط النسخي على أرضية نباتية ويعلو ذلك قمريات من الجص المخرم على هيئة أطباق نجمية عقدت بعقود دائرية بطونها على هيئة صنجات مستطيلة ، وأركانها مزخرفة بعناصر نباتية محورة ، ويحيط ذلك كله شريط كتابي بالخط النخسي ، يليه شريطين مماثلين من الجانبين .

4 - القباب :

تخلو المساجد الزيانية من القباب التي تعتبر مظهرا من مظاهر الفخامة في العمارة المرابطية والموحدية وهي لا تتضمن غير تلك القبيبات المقرنصة أو ذات القنوات في داخل المحاريب .

ويرجح أن الزيانيين هم بناة القبة المركزية في جامع تلمسان المرابطي وهي قبة بسيطة حاول الفنان فيها تقليد قبة المحراب الأصلية ولكنه لم يوفق في ذلك ، فجاءت خشنة بعيدة عن الرقة والرشاقة بالمقارنة مع القبة الأولى وهي قبة ذات 12 عقدا متداخلا ، ينتج عنه شكلا مضلعا أوسطا يقترب من الدائرة ، وفي منتصفها دائرة أخرى مفصصة تتدلى منها ثرياء ، ومنطقة انتقالها على هيئة مثلثات كروية قاعدتها للأسفل يرصعها شكلا نجميا ثماني الرؤوس مؤلف من بلاطات خزفية ملونة .

أما القبة التي أمام المحراب بمسجد سيدي ابراهيم فهي ، ذات قنوات تشبه القبة التي تغطي محراب الجامع الكبير بتلمسان من الداخل والتي يرجع أصلها الى القبة التي أمام المحراب في جامع القيروان والزيتونة .

5 - المآذن : (شكل 6)

بنى الزيانيون مآذن للمساجد التي أقاموها لأنفسهم كما شيدوا مآذن لمساجد بنيت من قبلهم

كانت تخلو منها ، ونعني بذلك مآذن : جامع أغادير الادريسي (عهد يغمراسن بن زيان) ومآذن المساجد المرابطية في الجزائر (عهد أبي تاشفين) وتلمسان (عهد يغمراسن) وندرومة (749 هـ) من طرف السكان .

وتحتل المآذن الزيانية أحد أركان المسجد باستثناء مئذنتهم بالجامع الكبير بتلمسان ومئذنة أغادير ، وهما مقامتان في موضع يكاد يكون محوري مع المحراب في الضلع الشمالي المقابل لجدار القبلة .

ونرجح أن هذا الموقع لهاتين المئذنتين ليس كما يزعم البعض تقليدا لمآذن الموحدين في الكتبية والقصبة في مراكش واشبيلية حيث تحتل فيها المآذن الركن الشمالي الشرقي وانما نعتقد أن المعمار الزياني كان مضطرا لذلك لعدم وجود متسع من المكان في الأركان المعهودة لمآذنهم لملاصقة هذه المساجد لعمائر لم يكن ممكنا تهديمها ليشغل جزء من المئذنة مكانها .

تتميز المآذن الزيانية بارتفاع متوسط وأقسام متوازنة وأبعاد متناسبة وتتألف جميعها من برج أسفل يعلوه جوسق . قسم البرج الى جزء أو ثلاثة بواسطة حطات أو أحزمة من الآجر تختلف مواضعها من مئذنة الى أخرى .

ويوصل الى المئذنة باب صغير يؤدي الى سلم يلتف حول نواة مركزية غطيت سلالمها الصاعدة بأقباء منحدرة تنتهي في الزوايا لكل انكسار سلم يقبو متقاطع أو أقباء ثلاثة تلتقي في نقطة واحدة .

وقد اتبع الزيانيون في زخرفة مآذنهم النظام الزخرفي للمآذن الموحدية وخاصة مئذنة حسن في الرباط ، والقصبة في مراكش ، والجيرالدا في أشبيلية ، وفتح في أوجهها الأربعة ، أو في أوجه منها فتحات للاضاءة والتهوية تتخذ شكل المزاغل وهو شكل مسلوب الى الخارج .

لقد زخرفت الأوجه الخارجية للمآذن بنوعين من الزخارف !

أولا : زخارف على هيئة تشبيكة مؤلفة من أشكال معينات شبيهة بزخارف المآذن الموحدية ونصادف هذا النوع من الزخارف في مئذنة أغادير والجامع الكبير ، ومئذنة جامع ندرومة ، وسيدي بلحسن ، وسيدي إبراهيم ، وتقوم الزخارف على بائكة معقودة ذات خطوط تحديدية منسكرة ، بها دلايات ويختلف عددها من مئذنة الى أخرى ، كما يختلف عددها من وجه المئذنة الى وجه آخر ، وترتكز العقود على أعمدة رخامية مشغولة في الحائط ، متنوعة في شكلها وزخارفها ويكتنف هذا الجزء من الأعلى ومن الأسفل بائكة معقودة مفصصة ، ترتكز على أعمدة مشغولة في حائط البرج ، يختلف عدد العقود وفصوصها من مئذنة الى أخرى أو ضمن المئذنة الواحدة ، وتنتهي أبراج المآذن بشرفات مسننة على هيئة مثلثة ، يتراوح عددها ما بين شرافتين أو ثلاثة ، محصورة بشرافات ركنية .

والنوع الثاني : من المآذن تخلو أوجهها من زخارف تشبيكات المعينات ، وعوضت ببوائك

معقودة بعقود متداخلة أو مفصصة كما في مئذنة مسجد المشور، وأولاد الامام، أما مئذنة جامع الجزائر المرابطي فلم يبق من زخارفها شيء يدل على أصلها، وتختلف هذه البوائك المعقودة وعددها وشكلها في هذا النوع من المآذن، ويشغل الجزء الأسفل منها مستطيل أو مستطيلين يشغلها عقد مفصص أو عقد تعلوه حطة أو حطتان من المعينات ويتراوح ارتفاع جوسق المآذن ما بين 3،45 م في مئذنة أولاد الامام والجزائر و 5،92 م في مئذنة مسجد المشور، أما طول ضلع الجوسق فيتراوح ما بين 1 م في مسجد أولاد الامام و 2،50 م في مئذنة جامع تلمسان الكبير.

لقد زخرفت أوجه الجوسق الأربعة بحشوات مربعة أو مستطيلة يرصعها عقد حذوى أملس أو مفصص، يعلو بعضه معينات قليلة.

الدراسة التحليلية

الخصائص العامة للمساجد الزيانية : صغر الحجم :

تتميز المساجد الزيانية باحتفاظها بجوهرها المعماري الأصلي اذا ما استثنينا مسجد المشور الذي تلقى تغييرا شاملا في شكله المعماري، ولم يبق منه غير مئذنته.

ومن خصائص هذه المساجد أنها صغيرة الحجم اذا ما قورنت بالمساجد الإسلامية السابقة كجامع القيروان والزيتونة وصفاكس والمساجد المرابطية بالجزائر[40] والمساجد الموحدية بالمغرب الأقصى[41] والمرينية المعاصرة للمباني الزيانية كالمنصورة وسيدي بومدين وسيدي الحلوي[42] هذا اذا ما استثنينا مسجد سيدي ابراهيم ذو الحجم المتوسط ويرجع السبب في ذلك حسب اعتقادنا الى ما يلي :

1/ ان العاصمة الزيانية كان بها من المساجد الجامعة ما يكفي حاجة المصلين ومتطلبات العبادة، فهناك جامع أغادير الادريسي وجامع تاكرارت المرابطي، وهما مسجدان عظيما الاتساع تؤدي فيهما صلاة الجمعة والجماعة ويتسعان لعدد ضخم من المصلين.

2/ ان المساجد التي بناها الزيانيون كانت بهدف تخليد ذكرى متوفى أو كملاحق للمدارس وأضرحة : فمن النوع الأول : مسجد سيدي بلحسن (696هـ/1296م.

ومن النوع الثاني مسجدي أولاد الامام (710هـ/1310م) وسيدي ابراهيم المصمودي (حوالي 760هـ/1359م) وبالتالي فإن هذا النوع من المساجد لا تقام فيه صلاة الجمعة وانما يختص بتأدية الصلوات الخمس اليومية العادية لطلبة المدارس وأساتذتها ولزوار الأضرحة.

3/ ان المرينيين شيدوا خلال غزواتهم وحصارهم لتلمسان مساجد متوسطة الاتساع ولكنها تصلح لتأدية صلاة الجمعة، ونعني بها بصفة خاصة مسجد سيدي بومدين بالعباد (739هـ/1338م) وسيدي الحلوي (754هـ/1353م).

ومن خلال المقاسات العامة لهذه المساجد الزيانية ندرك وظيفتها الثانوية ، ويتضح ذلك مما يلي : المسجد الأول ومقاسته 10،20 م عرضا و 9،70 م عمقا والمسجد الثاني تقدر مقاسته بـ 9 م عرضا و 6،30 م عمقا أما المسجد الثالث فان بيت الصلاة قيه تقدر بـ 19 م عرضا و 15،40 م عمقا .

الميزية الثانية : خلو المساجد من الصحن .

ان هذه المساجد الزيانية يخلو تخطيطها المعماري من الصحن الأوسط الذي تتضمنه جل المساجد باستثناء مسجد سيدي إبراهيم ، وهي في ذلك تشبه مسجد بوفتاتة بمدينة سوسة وجامع السيدة بالمنستير وجامع باب المردوم في طليطلة[43] .

والصحن هو الجزء الغير مسقوف داخل جدران المسجد ، وكان يعتبر في أول الأمر امتدادا لبيت الصلاة ، يستعمل في صلاة الجمعة ، حين يضيق المكان بالمصلين ، وكانت هذه الصحون في أول العهد الإسلامي موضع عدة نشاطات ، كاللقاءات بين الناس والتجارة ، ثم أخذت وظيفة الصحن تتحدد تدريجيا حتى أصبح الصحن يعد جزءا أساسيا من المسجد يحرم فيه ممارسة أي نشاط بعيد عن العبادة ونجد هذه الأحكام كلها واردة في كتاب الزركشي[44] .

ان وجود الصحن في مسجد سيدي إبراهيم يفسر تقليد معمار أبو حمو موسى الثاني لجامع سيدي الحلوي اذا ما قورن تخطيط كليهما وهو تخطيط يتطابق أحدهما تطابقا كاملا مع الآخر[45] ونعتقد أن بناء مسجد سيدي إبراهيم بهذا الحجم لا بسبب ضيق المساجد الأخرى بالمصلين وانما بني رغبة من أبي حمو موسى الثاني في تخليد ذكراه من خلال تخليد ذكرى متصوف إنقطع للعبادة والتدريس[46] والبعد عن زخرف الحياة وملذاتها بالاضافة الى التقرب بصورة أكثر من عامة الناس حيث كان الفقهاء والمتصوفة والمنقطعين للعبادة مركز جذب لهم .

الميزة الثالثة : بساطة التخطيط المعماري الداخلي للمساجد الزيانية :

يمتاز تخطيط المساجد الزيانية وخاصة سيدي بلحسن وأولاد الإمام بالبساطة الشديدة ، فهذين المسجدين يتألف كل منهما من ثلاث بلاطات عمودية على جدار القبلة بينما نجد في سيدي إبراهيم خمسا لها نفس إتجاه بلاطات المسجدين الأولين .

ان اتجاه البلاطات بطريقة عمودية على جدار القبلة واتساع البلاطة المركزية المحورية مع المحراب ثم البلاطتين المتطرفتين كل ذلك يتمشى مع الأرث الحضاري للمنطقة فجميع مساجد المغرب والأندلس الا في النادر منها تتخذ بلاطاتها نفس الوضعية كما في جامع القيروان والزيتونة وصفاكس[47] وأيضا في المساجد المرابطية في الجزائر[48] وكذلك في المساجد الموحدية[49] والمرينية المعاصرة في تلمسان[50] .

كما تتضح هذه الميزة في العودة الى نمط المساجد المغربية البسيطة لما قبل العصر المرابطي فجميع المساجد الزيانية تخلو من العقود المفصصة والعقود ذات الخطوط التحديدية المسننة ،

وهي العقود التي كانت تنتشر في بيوت الصلاة والمحاريب والفتحات والدخلات الصماء ، وكانت لها وظيفتان : معمارية وزخرفية ، تشكل هي والتيجان التي تعلوها ثروة فنية وزخرفية على درجة كبيرة من الرقة والرشاقة ، كما يتضح ذلك في مساجد المغرب والأندلس في العصرين المرابطي والموحدي[1] .

ونجد هذه البساطة واضحة داخل المساجد الزيانية اذا ما استثنينا القبيبات الداخلية في المحاريب والزخارف الجصية في سيدي بلحسن ، وربما كان للوضع السياسي الغير المستقر في الدولة الزيانية اثر على الأوضاع الاقتصادية انعكست سلبا على المظاهر الفنية ، وحتى في العناصر المعمارية التي كان المفروض أن تظل تتمتع بثرائها الفني والزخرفي ، ونقصد بذلك المآذن ، فانها اذا ما استثنينا أمثلة قليلة منها نجدها تأخذ في الانحدار والضعف فنيا وزخرفيا وذلك اذا ما قورنت بفترة الازدهار في العصر الموحدي .

الميزة الرابعة : موقع المئذنة من المسجد :

تحتل المآذن التي أقامها الزيانيون للمساجد التي بنوها أحد أركان المسجد ، كما أقاموا مآذن أخرى لمساجد كانت متواجدة قبلهم ولم يكن لها مآذن . وتحتل مئذنة جامع سيدي بلحسن ركنه الجنوبي الشرقي ، كما تحتل الركن الشمالي الشرقي في أولاد الامام ، والشمالي الغربي في سيدي إبراهيم .

أما مآذن المساجد السابقة فهي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية في المسجد الكبير بالجزائر وجامع ندرومة كما تحتل في مسجدي أغادير وتلمسان منتصف الضلع الشمالي الشرقي بطريقة تكاد تكون محورية مع المحراب .

ان موضع المئذنة في هذين المسجدين المختلف عن موضعها في بقية المساجد المعاصرة تذكر بموضع المآذن في مساجد مثل القيروان وقرطبة وحسن في الرباط[2] .

وعلى أية حال فانه اذا كان موقع المئذنة من المسجد يختلف من مسجد الى آخر في شرق العالم الإسلامي وغربه فان جل المآذن تقع عادة في :

- أحد أركان المسجد :
- الجنوبي الشرقي أو الشمالي الشرقي أو الشمالي الغربي .
- أو تتوضع في محور المحراب بالضلع المقابل له أو بالقرب من ذلك .

واذا كانت مواقع المآذن مختلفة فان المآذن متشابهة فيما بينها ، وقد ظلت مآذن المغرب عبر العصور وفية لأصلها وشكلها وتصميمها معماريا ، انطلاقا من مئذنة جامع القيروان المربعة الشكل[3] .

وقد قلد الزيانيون في ذلك الموحدون في موضع مآذنهم في الركن الشمالي الشرقي كما هوالحال في جامع الكتيبية واشبيلية وجامع القصبة بمراكش[4] .

الميزة الخامسة : المداخل التذكارية البارزة :

يتميز مسجدي سيدي بلحسن وسيدي ابراهيم بمداخل تذكارية بارزة الى الخارج معقودة بعقود حذوية كبيرة ، أما مسجد أولاد الامام فمداخله عادية غير تذكارية .

ويتميز المدخل الشرقي لمسجد سيدي بلحسن ببروز عن الحائط يقدر بـ 1 متر واتساعه من الخارج 3،5 متر ويقدر اتساعه عند العتبة بـ 2 متر ثم يأخذ في الاتساع تدريجيا ليبلغ حوالي 2،30 م مع بداية البلاطة الأولى المحورية .

أما مداخل سيدي إبراهيم الثلاثة فهي متشابهة فيما بينها من حيث بروزها ولكنها تختلف من حيث شكلها العام ، ومقاستها متطابقة تقريبا ولا تختلف الا في سعة الدركاة التي تلي الباب مباشرة ، فالمدخل الشرقي على سبيل المثال يبرز عن الحائط بـ 1،50 م ويبلغ اتساعه الخارجي 4،20 م تقريبا ويكتنفه كتفين المسافة بينهما 2،30 م وهي فتحة الباب ، ومن هذه الفتحة يولج الداخل الى دركاه مستطيلة طولها 1،90 م ويقدر عمق المدخل ابتداء من الباب بـ 2،40 م .

ان المداخل التذكارية البارزة معروفة تاريخيا ، فجامع المهدية الفاطمي (303هـ/916م) الذي أسسه عبيد الله المهدي كانت مداخله بارزة[1] وقد توالى بعد ذلك هذا الطراز من المداخل مع شيء من التغيير والتطور فيها كما يتضح في مداخل الجامع المرابطي الكبير بتلمسان من عهد على بن يوسف ابن تاشفين ليبلغ هذا الطراز قمة تطوره ونضجه في العمارة الموحدية ، حيث أتخذ فيها مظهرا معماريا وفنيا مضيفا للتصميم المعماري العام وللطابع الفني للمباني توازنا وانسجاما وفخامة في المظهر ، وقد أعطيت أهمية خاصة للمداخل في العمارة الاسلامية وتركزت عليها عناية الفنان والمعمار على السواء[5] في الفترة الموحدية على وجه الخصوص .

الميزة السادسة : اختفاء العقود المفصصة من بلاطات وأورقة المساجد الزيانية :

ان العقود المفصصة والمزخرفة بشتى الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية تعتبر مظهرا فنيا زخرفيا الى جانب أنها عنصرا معماريا ، وقد شهدت فترة ازدهار الحضارة ونضجها في المغرب انتقال هذا العنصر من الأندلس وخاصة أيام الوحدة السياسية بين العدوتين في العصر المرابطي والموحدي وهي الفترة التي طغى فيها التأثير الأندلسي على المغرب بفضل اقبال الفنانين الأندلسيين على المغرب وتعلم المغاربة لهذا الفن عن طريق انتقالهم الى الأندلس أو انتقال الأندلسيين الى المغرب . وتدل الآثار المرابطية الباقية في الجزائر بتلمسان ومراكش على مدى مساهمة الفنانين الأندلسيين في النشاط المعماري والفني في هذه المنطقة ، وقد ازداد الأثر الأندلسي في الفن المغربي خلال العصر الموحدي ازديادا كبيرا بلغ حدا يصعب معه وجود مبنى أو شكلا فنيا دون أن يكون للأثر الأندلسي فيه شيء ملموس وصورة محسوسة[6] .

ومع ذلك فان المساجد الزيانية لم تستفد من هذه العناصر المعمارية الفخمة الموجودة في جامع

الجزائر الكبير وجامع الكبير بتلمسان وحتى في جامع ندرومة ، بل أبعد هذا العنصر من داخل المساجد وان كان قد احتفظ به في زخرفة الأوجه الأربعة للمآذن كما يتضح في جميع المآذن الزيانية حيث تتراوح فصوص العقود فيها ما بين ثلاثة وخمسة فصوص في مئذنة أولاد الامام وأحد عشرة فصا في مئذنة مسجد المشور واثنيتي عشرة في سيدي ابراهيم[58] .

الميزة السابعة : استعمال الخزف في زخرفة المآذن :

من أهم مميزات العمارة الزيانية استخدامها للزخارف الخزفية أو ما يعبر عنه في المصطلح بالزليج ،وزخرفة العمائر بالزليج انتشر كأسلوب جديد في زخرفة العمائر منذ القرن 6هـ/12م . وقد كانت بدايته بسيطة ليبلغ قمة ازدهاره في القرنين 8/7هـ/15/14م .

وقد استخدم الزليج بصورة واسعة في زخرفة مآذن المساجد وهو على ثلاثة أنواع[59] .

الأول : زليج على هيئة قطع مطلية باللون الأخضر والأبيض والأسمر المنغنيزي .

الثاني : زليج يطلق عليه اسم القيراطي تحريفا لكلمة قرطبي ، وهو عبارة عن قطع مربعة من الخزف لا يتجاوز طول ضلعها 2،5 سم .

الثالث : زليج بشكل وحجم قطع النوع الثاني ولكنه زخرف بالبريق المعدني :

وقد استخدم النوع الأول في مئذنة مسجد سيذي إبراهيم وكذلك النوع الثاني الذي يظهر لأول مرة في هذدهـ الفترة والذي يرجح بعضهم أن أصله قرطبي بناء على تسميته بالقيراطي المحرفة عن القرطبي[60] أما النوع الثالث : استخدم في زخرفة مئذنة جامع المشور ، وأصل هذا النوع قديم يرجع في الفترة الإسلامية الى زخارف البلاطات ذات البريق المعدني التاي زينت اطار محراب جامع القيراون والتي يقدر عددها بـ 139 بلاطة زخارفها نباتية وهندسية وكتابية بلون واحد أو عدة ألوان (الذهبي ، الأصفر ، البني) . وقد جلبها في أوائل القرن 3هـ/9م خصيصاً لذلك الأمير الأغلبي زيادة الله الأول (202 – 224هـ/817 – 838م)[61] .

وفي القرن 5هـ/11م نعثر على قطع أخرى مربعة الشكل من اللبريق المعدني في قلعة بني حماد[62]ثم في مئذنة القصبة في مراكش ولكن في هذه الأخيرة لم يكن مرسوماً بالبريق المعدني انما بالألوان العادية كما كانت في مئذنة مراكش هذه محتشمة وقد استخدمت زخارف الزليج بمختلف أنواعها في تكسية الأوجه الأربعة للمآذن الزيانية وجواسقها ، وذلك في الأماكن المقعرة والمنحنية والمنكسرة والمقوسة ، كما استخدمت كتلبيسة حائطية أو كأشرطة وأحزمة لفصل المساحات عن بعضها أو لاحاطة مساحات بواسطتها . وقد استخدم هذا الأسلوب الزخرفي في جل المآذن الزيانية .

أما من الناحية الزخرفية فان زخارف الزليج لا تعدو أن تكون زخارف هندسية ولكنها منظمة بطريقة متنوعة تبدو معها التركيبات والتشكيلات الزخرفية مختلفة . فقد نظمت بطريقة ينتج عنها أشكال شطرنجية أو على هيئة أشكال مساحية منتظمة كالمربع والخطوط المتصلة بانكسار تمتد بأسلوب لا نهائي .

أما الألوان السائدة في هذا الزليج فهو اللون الأخضر والأبيض المعروفين في العصر الموحدي والاسمر المنغنيزي والأصفر الباهت ونادرا اللون الأخضر الفاتح والغامق(63) .

مما تقدم نستخلص أن الزيانيين لجأوا فيما شيدوه من مساجد على قلتها الى البساطة والاقتصاد في الترف الزخرفي ، وفخامة البناء ، ويرجع السبب في ذلك الى تاريخهم المضطرب والصراع السياسي والعسكري مع المملكتين المجاورتين : المرينيون غربا والحفصيون شرقا ، والذي كان يؤدي في كثير من الأحيان الى الحصار واحتلال العاصمة الزيانية والمغرب الأوسط بأكمله ومع عدم قدرة الأمراء الزيانيين على رد العدوان كانوا يلجأون الى ترك عاصمتهم والهروب الى الصحراء في انتظار الفرص المناسبة لاعادة سلطتهم على المنطقة والعاصمة وكان ذلك كله ينعكس بصورة قوية على الوضع الاقتصادي والاجتماعي فتنهار البنية الاقتصادية يصعب معها حدوث تطور حضاري أو قيام حركة معمارية وفنية نشطة وهو ما يتضح في قلة ما خلفه الزيانيون من عمران وبساطته بالمقارنة مع التاريخ الطويل الذي حكموا فيه .

هوامش

(1) ابن خلدون (عبد الرحمن) : كتاب العبر . ج 13 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1983 ص 156

(2) Piquet (V) : Autour des monuments du Maghreb, Ed. Maisonneuve, Paris, 1948, p.134.

(3) البكري (أبو عبد الله) : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، جزء من كتاب المسالك والممالك طبع (Maisonneuve) باريس 1965 ص ، 76 ، 80 .

(4) ليون الافريقي (عبد الله الوزان) : وصف افريقيا ، ج 2 ، ط 2 ترجمة محمد حجي وآخر دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1983 ص ص 8/7 .

(5) ابن خلدون (عبد الرحمن) المرجع السابق . ص ص 158/157

(6) سالم (السيد عبد العزيز) : المغرب الكبير ، ج 2 دار النهضة العربية – بيروت 1981 ص، ص 715/7،9 .

(7) Lambert (E) : L'art musulman d'occident des origines à la fin du XVe siècle, Ed. E.D.E.S, Paris, 1966, p.107

(8) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ج 13 ص ص 160/159

(9) Dhina (A) : Les Etats de l'occident musulman aux XIII, XIV et XVe siècle, O.P.U.-Enal, Alger, S.D, p.107.

(10) سالم (السيد عبد العزيز) : المرجع السابع ص 867 .

(11) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ، ج 13 ، ص 164 ، 171 – 172

Bourouiba (R) : L'art religieux musulman en Algérie, Alger, Sned, 1973, p.107.

(12) Bouali (A) : Les deux sièges de Tlemcen, Enal, Alger, 1984, pp.22-24.

(13) ابن خلدون (يحي) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 219 .

(14) Marçais (G) : L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, pp.1272-173; Bourouiba (R) : o.p, cit., p.108.

(15) Lambert (E) : op., cit., p.131.

(16) Lambert (E) : ibid., p.130.

حاجيات (عبد المجيد) أبوحمو موسى الزياني ، ض.و.ن.ا الجزائر 1974 . ص 61

(17) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ، ج 13 . ص ص 197/189

(18) حاجيات (عبد الرحمن) المرجع السابق ص ص 15/14

(19) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ج 13 م ص ص 204/203

(20) ابن خلدون (عبد الرحمن) نفس المرجع ، ص ص 207 – 213

(21) ابن خلدون (عبد الرحمن) ، نفسه . ص ص 216 – 218 .

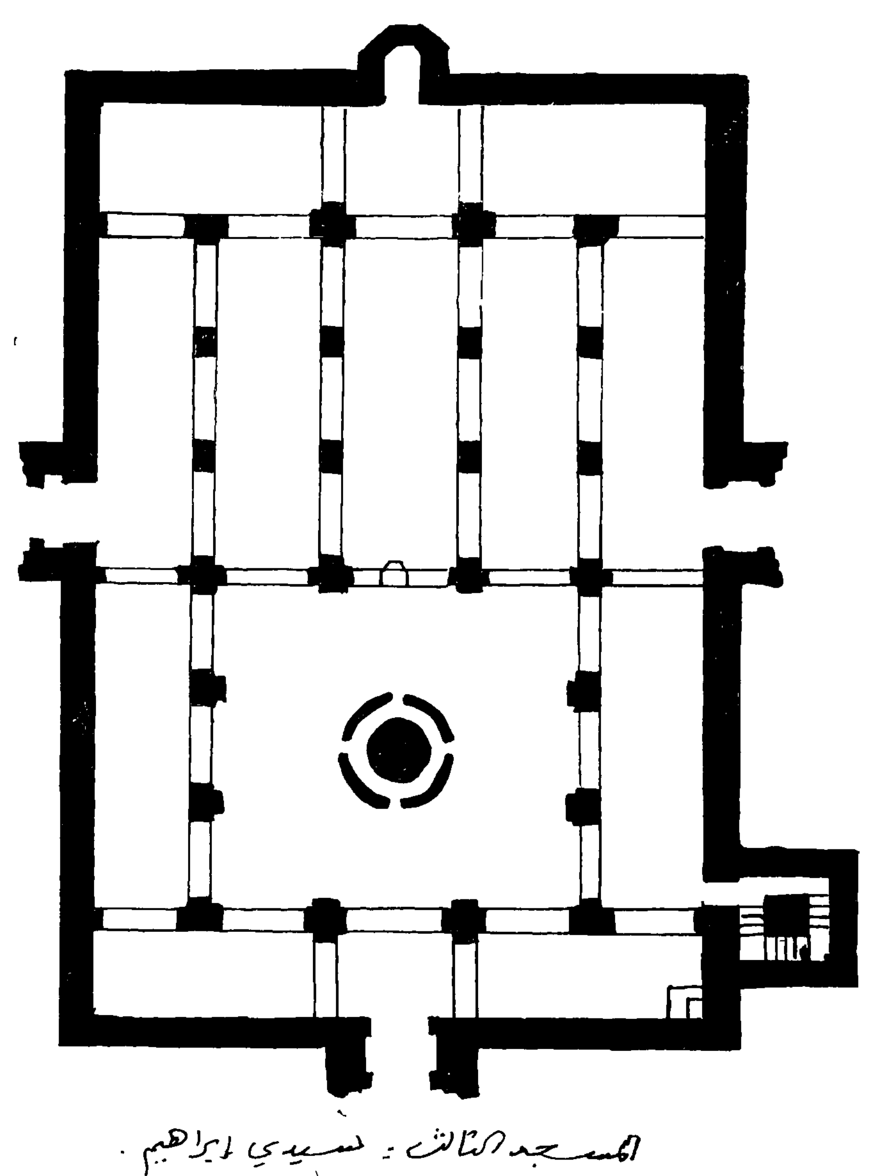
(22) **مجموعة مؤلفين** : الجزائر في التاريخ ، ج 3 العهد الاسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984 – ص . 384 .

(23) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ، ج 13 ، ص 252 – 254 .

(24) نفسه ص 255 .

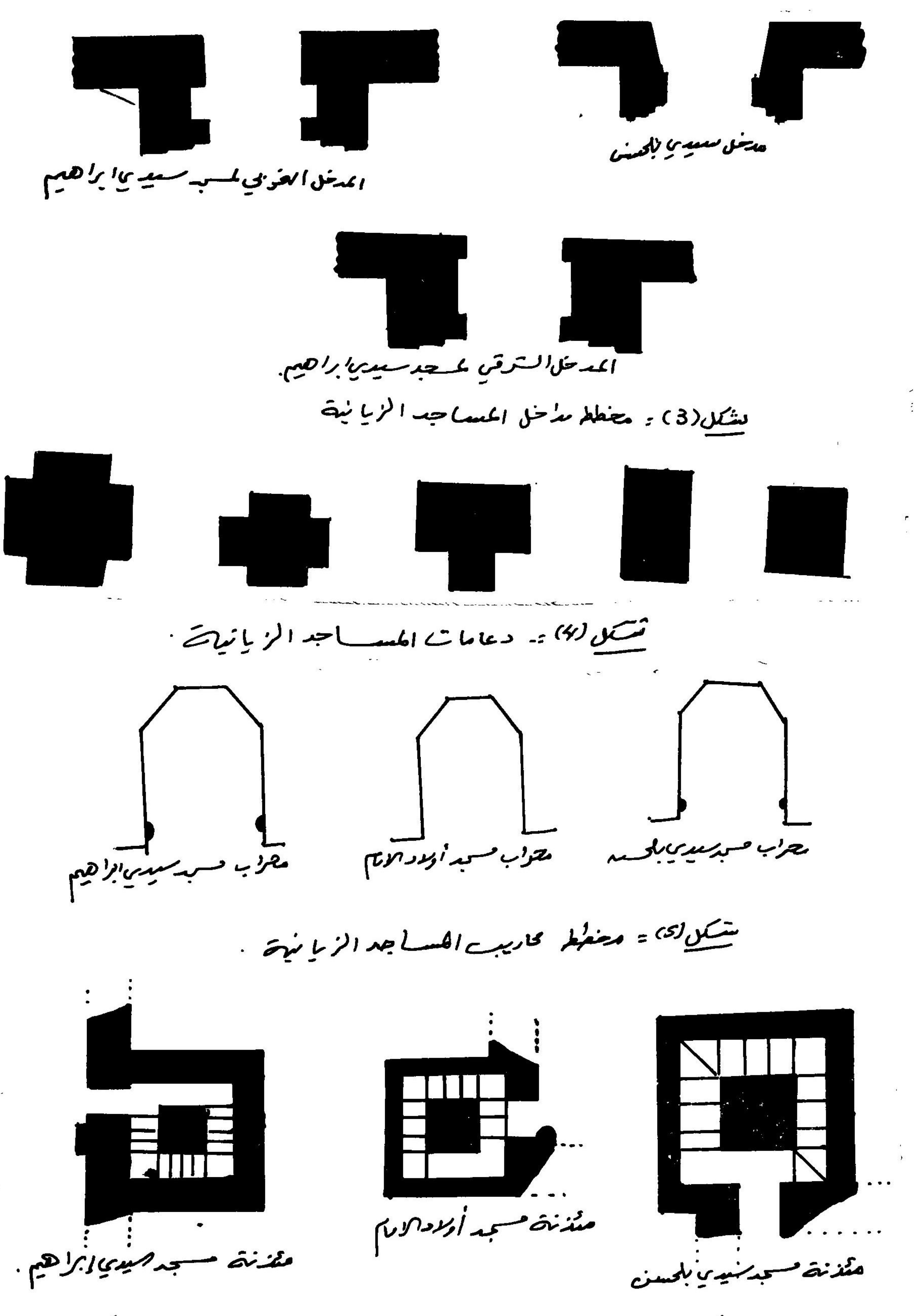
(25) **مجموعة مؤلفين** : المرجع السابق . ض 402 .

(26) نفسه . ص 402 .
(27) حاجيات (عبد المجيد) : المرجع السابق . ص ص 88 - 89 .
(28) نفس المرجع .ص . 94 .
(29) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ، ج 13 ، ص ص 254 - 305 .
(30) مجموعة مؤلفين : المرجع السابق . ص 440
(31) ابن خلدون (عبد الرحمن) العبر ، ج 13 ، ص 466
(32) Marçais (G) : op., cit., p.272.
(33) Dhina (A) : op., cit., p.216.
(34) Marçais (G) : op., cit., p.172.
Bourouiba (E) : op., cit., p.109.
(35) ابن خلدون (عبد الرحمن) : العبر ج 13 ص ص . 536 - 537 .
(36) مجموعة مؤلفين : المرجع السابق ص ص 384 - 385 .
(37) نفس المرجع ص 440
(38) نفسه . ص 441
(39) حاجيات (عبد الحبد) المرجع السابق ض 170
مجموعة مؤلفين المرجع السابق . ص 449
(40) Golvin (C) : Essai sur l'architucture religieuse musulmane, T.4, Ed. Klincksieck, Paris, 1979, pp.173-184.
(41) Ibid., Figs. 82-85.
(42) Bourouiba (R) : L'art religieux musulman en Algérie, Alger, Sned, 1973, p.161.
(43) Bourouiba (R) : ibid., P.M.O; Golving (C) : op., cit., fig. 81.
مورينو (جوميت مانويل) الفن الاسلامي في اسبانيا . ترجمة د . عبد العزيز سالم وآخر . الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة .د. ت شكل 261 .
(44) الزركشي (محمد ابن عبد الله) : أعلام الساجد بأحكام المساجد تحقيق مصطفى المراني القاهرة 1982
(45) Bourouiba (R) : op., cit., fig. 44-57.
(46) مجموعة مؤلفين : المرجع السابق . ص 449
(47) Golvin (C) : op., cit., T.3, Fig. 60-64-66.
(48) Bourouiba (R) : op., cit., fig. 23-25.
(49) Golvin (C) : op., cit., T.4, Fig. 82-85.
(50) Bourouiba (R) : op., cit., Fig. 56-58.
(51) Marçais (G) : L'Architecture, pp.232-237.
(52) Marçais (G) : L'Architecture, p.272.
(53) Golvin (C) : op., cit., T.1, p.47-49.
(54) Bourouiba (R) : op., cit., p.124
(55) Marçais (G) : L'Architecture, pp.69-70.
(56) Ibid., p.241; Golvin (C) : op., cit., T.4, Fig. 64-82-85.
(57) سالم (السيد عبد العزيز . المرجع السابق ص ص 748 - 849 ، 832 - 833
(58) انظر اللوحات في : Bourouiba (R) : op., cit., PLS ++ 11-2-3.
(59) Bourouiba (R) : op., cit., p.137-138.
(60) Marçais (G & W) : Les monuments Arabes de Tlemcen, Fontamoigne, Paris, 1903, p.82.
(61) ديماند (م . س) الفنون الاسلامية . ط 2 دار المعارف بمصر 1958 . ص 177
(62) Bourouiba (R) : op., cit.. p.138.
(63) Marçais (G) : L'Architecture, p.332-336.



المسجد الثالث : لسيدي ابراهيم .

الشكل (2)

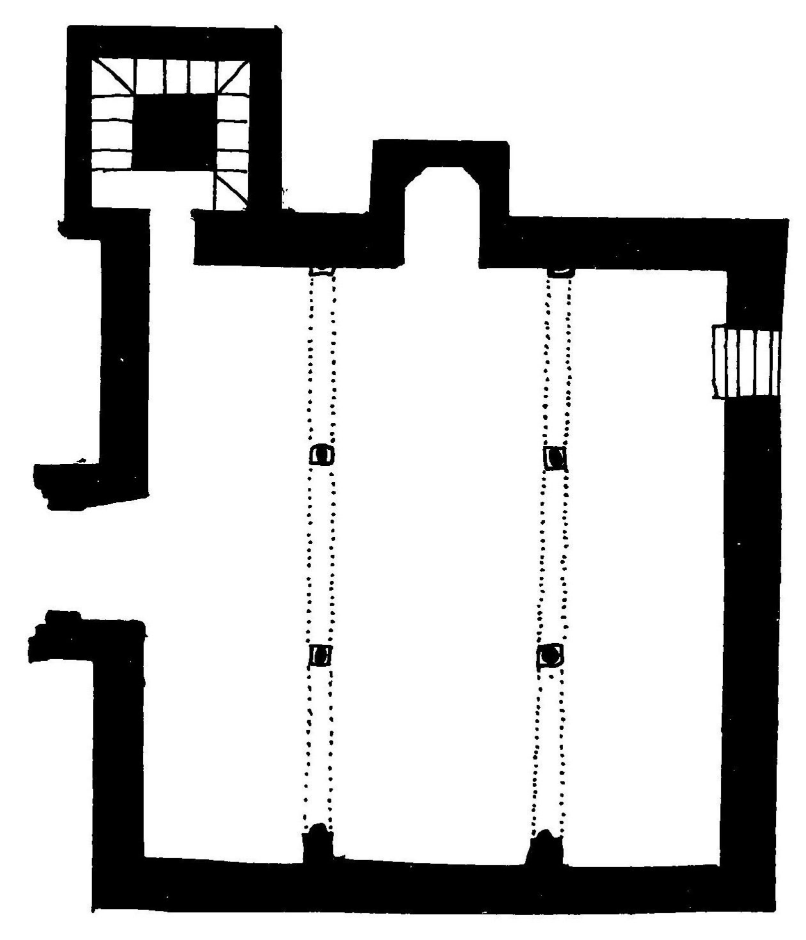


شكل (3) : مخطط مداخل المساجد الزيانية

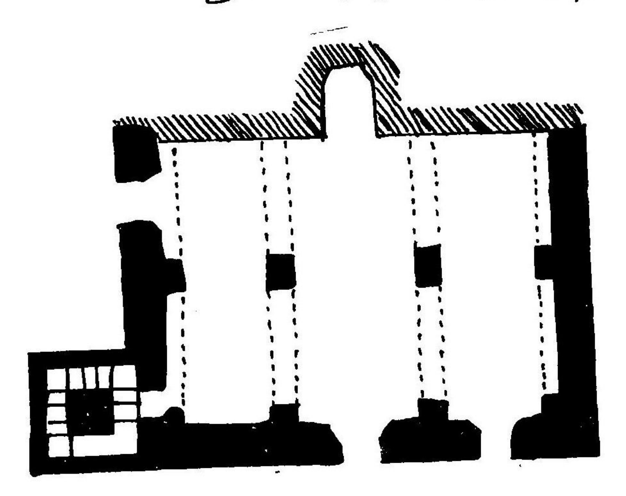
شكل (4) :- دعامات المساجد الزيانية .

شكل (5) = مخطط محاريب المساجد الزيانية .

شكل (6) = مآذن المساجد الزيانية



المسجد الأول : سيدي بلحسن



المسجد الثاني : أولاد الإمام .

شكل (3)